

MORPHOLOGICAL FORMS IN QURANIC REPROOF: A FUNCTIONAL RHETORICAL STUDY

الصيغ الصرفية في العتاب القرآني: دراسة بلاغية وظيفية

Hossam Ataallah Elsaied Ataallahⁱ, & Norfarhana Ahmad Ghafarⁱⁱ

ⁱ (Corresponding author). Senior Lecturer. Faculty of Major Language Studies, Universiti Sains Islam Malaysia. hossam@usim.edu.my

ⁱⁱ Senior Lecturer. Faculty of Major Language Studies, Universiti Sains Islam Malaysia. norfarhana@usim.edu.my

Article Progress

Received: 2 April 2026

Revised: 26 May 2026

Accepted: 15 August 2026

Abstract	<i>This study aims to elucidate the concept of Quranic reproof (Admonition), identify its diverse contexts, and reveal the nuances behind the selection of past, present, and active participle forms within this style in the Holy Quran, illustrating how the Quranic eloquence employs them across various settings. The study adopts a descriptive-analytical approach, tracing the verses of reproof, categorizing their contexts, and analyzing the occurrences of these morphological forms in light of Abd al-Qahir al-Jurjani's Theory of Systems (Nazm), highlighting the aesthetic brilliance of Quranic expression. The study reaches several key conclusions, most notably that Quranic reproof is a manifestation of Allah's kindness and benevolence toward the believers; He Glorified be He admonishes them for their lapses to overlook their faults and elevate their ranks. The research identifies four primary contexts of reproof: Allah's admonition of former prophets, His admonition of Prophet Muhammad (PBUH), the admonition of the Mothers of the Believers, and the admonition of the Companions. Furthermore, the study demonstrates that the choice of past tense, present tense, and active participle forms is intricately linked to the context: the past tense highlights and recalls the event prompting the reproof, the present tense visualizes and summons the event into the present, while the active participle establishes and affirms the matter. Quranic reproof follows a gentle path that penetrates the depths of the soul, masterfully balancing between censure and reprimand, and consolation and kindness.</i> Keywords: Admonition, Quran, al-Jurjani, Nazm, Companions.
-----------------	--

ملخص البحث	تهدف هذه الدراسة إلى بيان مفهوم العتاب القرآني، وتحديد مقاماته المتنوعة، والكشف عن بعض أسرار اختيار صيغ الفعل الماضي والمضارع واسم الفاعل في أسلوب العتاب في القرآن الكريم، وكيف وظفها البيان القرآني في السياقات المختلفة. وقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي حيث تتبعت الدراسة آيات العتاب، وصنفت سياقاتها، وجمعت مواضع هذه الصيغ وحللتها في سياقاتها مبرزة جماليات التعبير القرآني في اختيار صيغة معينة. واعتمدت في
------------	---

ذلك رؤية نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني. وتوصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها أن العتاب القرآني مظهر من مظاهر لطف الله بعباده المؤمنين، وإحسانه إليهم، فهو سبحانه يعاتبهم على ما بدر منهم، ليقيل عثرهم ويرفع درجاتهم، وأن مقامات العتاب في القرآن الكريم أربع مقامات أساسية، هي عتاب الله تعالى للأنبياء السابقين، وعتاب الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، وعتاب أمهات المؤمنين، وعتاب الصحابة. وأثبتت الدراسة أن اختيار صيغ الماضي والمضارع واسم الفاعل في أسلوب العتاب، يرتبط بمناسبة الصيغة للسياق. فيوظف صيغة الفعل الماضي في اللفت إلى الحدث المقتضي العتاب واستذكاره، وصيغة المضارع في معاينة الحدث واستحضاره، كما يوظف صيغة اسم الفاعل في إثبات الأمر وإقراره، ويسلك العتاب القرآني مسلكاً لطيفاً ينفذ به إلى أعماق النفوس، يجمع بين الإنكار والتعنيف، والتسلي والتلطيف.

الكلمات المفتاحية: العتاب، القرآن، الجرجاني، النظم، الصحابة.

مقدمة

البحث في بلاغة القرآن مضمار واسع لم يبلغ الباحثون غايته، رغم كثرة ما كتب فيه؛ لدقة مسلكه، وعجز المدارك عن إدراك سر إعجازه، وقد كثرت الدراسات حول القرآن الكريم وتنوعت، غير أن الدراسة الموضوعية تعد من أكثر الدراسات عمقا في فهم القرآن، حيث تقوم على تتبع موضوع محدد في القرآن الكريم، واستقراء آياته وجمعها وتصنيفها حسب سياقاتها، لفهم أبعادها الإيمانية والتربوية، والكشف عن خصائصها الأسلوبية.

وتكمن مشكلة الدراسة في البحث عن توظيف الصيغ الصرفية في آيات العتاب في القرآن الكريم وتحليلها للكشف عن خصائصها الأسلوبية في بيان المعاني، وكشف الأحداث، وتحقيق المقاصد من العتاب.

وهذه الدراسة تهدف إلى:

١. بيان مفهوم العتاب القرآني، وسياقاته المختلفة.
٢. الكشف عن الخصائص البلاغية والأسلوبية لتوظيف الصيغ الصرفية في العتاب القرآني (الفعل المضارع والماضي واسم الفاعل)

منهج البحث

اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج الاستقرائي حيث تتبعت الدراسة آيات العتاب وجمعتها من خلال الاطلاع على أقوال المفسرين كالطبري والزمخشري والقرطبي وغيرهم، ثم أحصت مواضع التعبير بصيغ الفعل الماضي والمضارع واسم الفاعل؛ لكثرة ورودها في الآيات، وحللت نماذج منها في سياقاتها المختلفة لإبراز جماليات التعبير

القرآني في اختيار الصيغة وتوظيفها في السياق، واعتمدت في ذلك رؤية نظرية النظم لدى عبدالقاهر الجرجاني. والتي تقوم على ثلاثة مبادئ أساسية، هي: الاختيار الترتيب والتعليق.

وقد اشتملت هذه المقالة على مقدمة، ومدخل وأربعة مطالب هي:

المطلب الأول: اختيار الصيغة وأثره في النظم.

المطلب الثاني: التعبير بصيغة الفعل المضارع.

المطلب الثالث: التعبير بصيغة الفعل الماضي.

المطلب الرابع: التعبير بصيغة اسم الفاعل.

ثم الخاتمة وتتضمن أهم نتائج البحث وتوصياته.

مفهوم العتاب ومقاماته

العتاب في اللغة من (عَتَبَ) "وهو أصل صحيح يرجع كله إلى الأمر فيه بعض الصعوبة من كلام وغيره (ابن فارس، ١٩٩٨). ويدور حول معان كثيرة منها: ما دخل الأمور من فساد يشوب خلوصها، والتجنى، والموجدة، والغضب، واللوم، ويشترك منه الإعتاب والعتي للدلالة على الاستدراك والرجوع عن الإساءة.

قال الأزهري: "التَّعْتَبُ، والمُعَاتَبَةُ، والعِتَابُ: كل ذلك مخاطبة الإدلال، وكلام المذللين أخلاءهم طالبين حسنَ مراجعتهم، ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم المؤجدة" (ابن منظور، ٢٠٠٨) وهذا القول يعطى تعريفاً دقيقاً لمعنى العتاب، وما يتميز به عن غيره من الأساليب، فالعتاب لا يكون إلا بين الأخلاء والأحبة، المستوثقين فيما بينهم بعروة الحب والمودة، طلباً لحسن المراجعة، وإزالة المؤجدة، وإدامة الرضا، وقد بين عبدالجواد مفهوم العتاب في الأدب فقال: "معناه لوم الإنسان لنفسه، أو لغيره، لتقصير حدث، أو خطأ وقع، أو هفوة كانت، بدافع الحب، والحرص على استبقاء المودة، أو إسداء النصيحة للملوم" (عبد الجواد ١٩٨٧).

أما مفهوم العتاب في القرآن الكريم فيمكن تعريفه إجرائياً، بأنه أسلوب بديع يظهر لطف الله تعالى ورحمته بأحبابه من الأنبياء وأتباعهم المؤمنين، وإحسانه إليهم، فهو - سبحانه - يعاتبهم على ما بدر منهم، ليرفع درجاتهم، ويقلل عثرتهم، ويعقد قلوبهم على محبته، وليصقل نفوسهم لحمل أمانته، ويصلحهم بحبله، ويقيمهم على صراطه. ليرتقوا درجة بعد درجة، ويحلوا كرامة بعد كرامة. فالمتدبر للقرآن الكريم "يشهد من خطابه عتابه لأحبابه، وأنه مع ذلك مقليل عثراتهم، وغافر ذلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم والهامي، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب، والموفى لهم بوعده، وأنه وليهم الذي لا ولي لهم سواه، فهو مولاهم الحق، وينصرهم على عدوهم فنعم المولى ونعم النصير" (القاسمي، ١٩٩٧).

مقامات العتاب في القرآن الكريم

ورد العتاب في مقامات مختلفة في القرآن الكريم يمكن حصرها في أربعة مقامات وهي:

١. عتاب الله تعالى للأنبياء السابقين

كما في عتاب آدم عليه السلام؛ لأكله من الشجرة، قال تعالى: ﴿فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَهْكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف، ٢٢، ٢٣).

وعتاب نوح عليه السلام في محاولته الشفاعة لابنه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (هود، ٤٥، ٤٦).

٢. عتاب الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم

وقد ورد ذلك في مواضع، منها: عتابه في الإذن للمنافقين، قال تعالى: ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَدْنِتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة، ٤٣: ٤٥).

وعتابه في قصة زيد بن حارثة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيِّ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب: ٣٧).

وعتابه في شأن عبدالله بن أم مكتوم، قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنْ أَسْتَعْتَى * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس: ١: ١٢).

٣. عتاب الله تعالى لأمهات المؤمنين

كما في قصة تظاهرن على النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ نِعَبْتِ مِنْهُنَّ عِدَّتٍ سَبْعِينَ نَجَسَتْ وَأَبْكَارًا﴾ (التحریم ٣، ٤، ٥).

٤. عتاب الله تعالى للمؤمنين

وقد ورد ذلك في مواضع منها: عتاب الصحابة على عصيانهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، في مواضع من سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران، ١٤٢: ١٤٤).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرْذِلْكُمُ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنَيْهِمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ يَدْعُوَكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا كُنْتُمْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران، ١٤٩: ١٥٢).

وغيرها من المواضع من سورة آل عمران وعتابهم على تناقلهم عن الجهاد في غزوة تبوك، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا أَتْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْغَلِيَّةُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ٣٨: ٤٢).

وعتابهم في حادث الإفك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ

لَنَّا أَنْ نَتَكَلَّمَ هَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا هُتُّ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *
وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿النور، ١١: ١٨﴾.

وغير ذلك من السياقات والمواضع، وقد بلغت آيات العتاب ١٣٨ آية، وذلك بناء على أقوال المفسرين في الآيات.

المطلب الأول: اختيار الصيغة وأثره في بناء النظم

الكلمة هي اللبنة الأولى في بناء النظم، واللغة العربية ثرية بألفاظها ومترادفاتھا، غنية بصيغها وأوزانها، ولكل لفظة وصيغة خصوصيتها التي تتميز بها عن غيرها وتجعل منها فريدة العقد في موضعها من الكلام، واختيار الكلمة والصيغة الملاءمة للمقام هو عمود البلاغة الذي إذا انتقض جاء منه إما تبدل المعاني الذي يكون معه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه ذهاب البلاغة" (الخطابي، ١٩٧٦).

والمراد ببناء الصيغة تغيير هيئة الكلمة وبنيتها؛ للدلالة على خصوصية زائدة في المعنى، وتكمن براعة الأسلوب في اختيار الصيغة التي تبين المعنى وتلائم المقام، وعلى قدر الإصابة في اختيار الصيغة، يكون السبق في مضمار البلاغة يقول ابن الأثير: "اعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لخصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز البلاغة والفصاحة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنها، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكال ضروب علم البيان، وأدقها فهماً، وأغمضها طريقاً (ابن الأثير، ١٩٥٩).

والقرآن الكريم قد تفرد بمرتبة الإعجاز في اصطفاء الكلمة المعبرة بمادتها وصيغتها عن المعنى، الملاءمة بوضعها للسياق، إذ يتخير من الألفاظ والصيغ أمسها رَجَمًا بالمعنى المراد وأجمعها للشوارد وأكثفها للإيحاءات، ولبناء الصيغة في مقام العتاب في القرآن الكريم مسلك لطيف، تكشف دونه أستار المعاني، وتتجلى به أسرار الخصائص البلاغية، وسيتناول هذا البحث ثلاث صيغ هي: الفعل المضارع، والفعل الماضي، واسم الفاعل.

المطلب الثاني: التعبير بالفعل المضارع

الفعل المضارع يدل بوضعه على الحال والاستقبال، ومن ثم فإنه بدلالته على الحال يفيد استحضر هيئة الفعل حال وقوعه، كما يفيد بدلالة الاستقبال على استمرار حدوث الفعل في المستقبل، ومن هاتين الدالتين تتفجر بلاغة التعبير بصيغة المضارع عن الأحداث الماضية قال ابن يعقوب المغربي: "لأن المضارع يدل على الحال المشاهد فقد يستعمل للإشعار بالحضور الذي هو الأصل، وللتنبية بالعبرة على الشهود، فكأنه يقال عند التعبير به: اشهدوا هذا الأمر الذي نحضره بالتعبير بما يدل على الحضور، وإنما يفعل ذلك في الأمر الغريب، أو الفظيع أو نحوه كاللطيف، والعجيب" (ابن يعقوب المغربي، د.ت).

ومقام العتاب بطبيعته مقام تعقيب على أحداث مضت وانقضت، والتعبير بصيغة المضارع عن هذه الأحداث الماضية، يسترعى الانتباه، ويكشف عن لطائف بدیعة وأسرار دقيقة. من ذلك ما جاء في سياق عتاب المؤمنين في غزوة الخندق، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتُمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة، ٢١٤). قال قتادة والسدي: "نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش، وأنواع الأذى" (الواحدى، ١٩٩٧). فالآية تسليه للمؤمنين عما أصابهم من الألم في سبيل الله، وذلك ببيان حال أتباع الرسل السابقين وما أصابهم من البأساء والضراء، ففي ذكرهم تأسية وتسليه، وفي الآية كذلك عتاب رقيق على ظنهم أن طريق الجنة يسيرة سهلة، مستفاد من الاستفهام الإنكاري في قوله: "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ" وصيغة المضارع "يقول" معطوفة على صيغتي الماضي "مستهم وزلزلوا" لسر بلاغى، يقول أبو حيان: "المراد هنا الماضي، فيكون حالاً محكية، إذ المعنى وزلزلوا فقال الرسول" (أبو حيان، ١٩٩٣).

فصيغة المضارع بما تنطوي عليه من خاصية استحضار الحدث الماضى وتصويره، تجسد جسامة الموقف، وتستحضره بكل جوانبه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، حتى لكأن السامع يعاين هذا المشهد الخاشع للرسول والمؤمنين، وهم يتضرعون إلى الله تعالى "متى نصر الله؟!؟" مما يوحى باستبطاء النصر، لشدة العذاب، وطول استمرار الأذى، فالتعبير بالمضارع يجعل من الحدث صورة حية نابضة تراها الأجيال المتعاقبة؛ لتدرك مدى معاناة رسل الله وأتباعهم المخلصين في القيام بأعباء الدعوة، ولو عبر بالماضي "قال" لفات معنى الاستحضار والاستمرار. ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى في عتاب المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٠٠، ١٠١). هذه الآيات نزلت عتاباً للأَنْصار من الأوس والخزرج على طاعتهم لشاس بن قيس اليهودي اللعين، وتأثرهم بفتنته حين ذكرهم بما كان بينهم من ترات في الماضي، حتى فرعوا إلى السلاح واصطفوا للقتال، لولا أن تدراكهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطبري، ١٩٩٧). والعتاب هنا مستفاد من الاستفهام التعجبي في قوله تعالى: "وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ...".

وفي سياق هذا الاستفهام التعجبي الذي يفيد العتاب نلاحظ انتشار صيغة المضارع حيث وردت خمس مرات وهي: (تطيعوا-يردوكم-تكفرون-تتلى-يعتصم) وهذه الصيغ بدلالاتها تضيف على السياق ظلاً من مقارنة الوقوع في الأمر ووشك حدوثه، إلا أن الله تداركهم برسوله فأنقذهم قبل أن يتقاتلوا فيهلكوا. ففي الآية الأولى عبر بالمضارع (تطيعوا، يردوكم) وهما شرط وجواب، للدلالة على أن هذا الحكم القدري سائر مستمر، وليس خاصاً بهذه الحادثة التي مضت فلم يقل إن أطعتم ردوكم، وإنما جعل هذا أمراً مستمراً ليحذر المؤمنين في كل زمان من مغبة طاعة الكافرين، ودلالة "إن" الشرطية على القلة والندرة توحى بأن أقل طاعة للكافرين تردي إلى الكفر، أو توحى بأن هذا أمر ينبغي ألا يحدث إلا نادراً.

وفي الآية الثانية، نجد ثلاث صيغ (تكفرون-تتلى-يعتصم) ودلالاتها إفادة التجدد والاستمرار، فالفعل "تكفرون" يفيد تجدد واستمرار التعجب من الكفر، واستبعاده في وجود هذين الواعين، ولو قيل: وكيف كفرت، لنبا اللفظ عن الغرض المقصود؛ إذ ليس المعنى أنه وقع منهم كفر فونجوا عليه؛ لأنهم مؤمنون، ولذلك نودوا بصفة في الآية السابقة (أبوحيان، ١٩٩٣) والفعل "تتلى" يفيد استمرار نزول الوحي، وتلاوة الآيات من لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم. غضة طرية، كما يفيد تجدد هذه التلاوة، وبقاءها أبد الدهر، قال قتادة: في الآية علمان بينان: وجدان نبي الله، وكتاب الله، فأما نبي الله فمضى صلى الله عليه وسلم، وأما كتاب الله، فأبقاه الله بين أظهركم، رحمة منه ونعمة فيه حاله وحرامه، وطاعته ومعصيته. (الشهاب الخفاجي، ٢٠٢٥).

والفعل (يعتصم) يفيد الدوام والاستمرار، فكأن المعنى: ومن يداوم ويستمر على الاعتصام بمنهج الله "فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، والتعبير بصيغة الماضي "هُدِيَ" تدل على تحقق الهداية لمن يعتصم بالله، ويستمر على ذلك، قال الشهاب الخفاجي: "أي فقد تحقق له حصول الهدى، وهذا مستفاد من جعل الجزاء فعلاً ماضياً مع "قد"؛ لأنه لا ينقلب إلى المستقبل، مثل: إن تكرمى فقد أكرمتك (الخفاجي، ٢٠٢٥)

فالآية عتاب للصحابة من الأنصار؛ لطاعتهم هذا اليهودي، وهى خطاب لكل مسلم، قال الزجاج: "يجوز أن يكون الخطاب لجميع الأمة؛ لأن آثاره وعلاماته. صلى الله عليه وسلم. والقرآن الذى أوتى فينا مكان النبي. صلى الله عليه وسلم وإن لم نشاهده" (القرطبي، ١٩٨٧) ومن بديع التعبير بصيغة المضارع ما نجده في عتاب الله تعالى المؤمنين على ما كان منهم في غزوة أحد، إذ يبرز في الآيات الكريمة التعبير بصيغة المضارع؛ لاستحضار الحدث وتصويره في صورة معبرة موحية.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ (آل عمران: ١٢١ - ١٢٧). قال ابن عطية: "هذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أحد" (ابن عطية، ١٩٧٥).

ويكمن العتاب هنا في الجمع بين التذكير بخروج النبي صلى الله عليه وسلم معهم للقتال، وهم طائفتين منهم أن تفشلا وترجعا، فالأحرى بهم وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم معهم للقتال أن يطيعوه ويثبتوا حيث بؤاهم، لا أن يفشلوا ويرجعوا، كأنه قيل: كيف ترجعون وتتركون نبيكم؟ أترغبون بأنفسكم عن أنفسه؟!

وصيغة المضارع "تبوئ" تضع أمامنا صورة حية للحدث، حتى لكأننا ننظر الآن إلى النبي وهو ينظم الصفوف، ويشحذ الهمم، ويثبت النفوس، وينزل كل فرقة منزلها من الميدان، ثم يلفتهم السياق إلى مثل حي قريب عهد بهم، عرفوا فيه طريق النصر والتزموا أسبابه من طاعة وصبر وثبات، فذاقوا طعمه حلو سائغاً ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

اللَّهُ يَبْدُرُ وَأَنْتُمْ إِذِلَّةٌ ﴿١٩٩٢﴾ وهذه هي اللمة الأولى في تذكيرهم بالنصر في بدر، ثم يستحضر مشهدها ويستحيي صورتها في حسهم حتى كأنهم اللحظة فيها ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَكُمْ...﴾ (قطب، ١٩٩٢). وبالتأمل في هذه الآيات نجد ارتكاز التعبير فيها على الفعلين الماضي والمضارع، فالفعل الماضي للتذكير بالحدث، والمضارع لاستحضاره، فقد ضمت الآيات أربع أفعال ماضية هي: (غدوت. همت. نصركم. جعله) ووظيفتها في السياق التذكير بالحدث، وتأكيد حصوله، أما المضارع فقد انتشر في الآيات انتشارا واسعا فضمت خمسة عشر فعلا هي: (تبوء. تفشلا. يتوكل. تشكرون. تقول. يكفيكم. يمدكم. تصبروا. تتقوا. يأتوكم. يمددكم. تطمئن. يقطع. يكتبهم. ينقلبوا).

ودلالاتها في السياق دلالة استحضار أو استمرار، فالأفعال (تبوء، وتقول، ويأتوكم) تستحضر هذه المواقف من غيب الذاكرة إلى أفق الناظرة، فكأننا نرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يُنَزِّلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَوَاضِعِهِمْ، ونسمعه وهو ينفذ إليهم هذه البشارة بنزول الملائكة لنصرهم، وفي تذكيرهم بهذا النصر المبين بعد فرارهم في غزوة أحد ما فيه من اللوم والعتاب.

أما باقي الأفعال فدلالاتها أقرب إلى الاستمرار للإشارة إلى أن هذه المعاني مطلوب فيها الاستمرار والمداومة حتى تتحقق نتائجها، مثل: يتوكل. تشكرون. تصبروا. تطمئن. وينقلنا السياق إلى التذكير بحالهم قبل المعركة، وما كانوا عليه من حرص على الشهادة والموت في سبيل الله، ثم فرارهم عند معاينة الموت ومشاهدة أهواله، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (آل عمران، ١٤٣) قال أبو حيان: "الآية - وإن كان لفظها خبراً- فمعناها العتب، والإنكار على من انهزم يومها" (أبو حيان، ١٩٩٣) والفعل المضارع "تَمَنَّوْنَ" يصور هذه الأمنية، ويستحضرها لتقف النفوس أمام حقيقتها، وتفرق بين ما كانت عليه قبل مشاهدة الموت من شجاعة وإقدام، وما صارت إليه بعد معاينة أهواله من تولٍ وفرار، وفي هذا تشديد للعتاب، ولو عبر بصيغة الماضي "تمنيتم" لفات كثير من بلاغه التعبير، ولذهبت تلك الصورة المنوط بها أثر العتاب وثمرته.

وينتقل السياق نقله أخرى فيستحضر مشهد المعركة بشطريه النصر والهزيمة في صورة فائضة بالحياة والحركة (قطب، ١٩٩٢) يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ بِأَذْنِهِمْ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ مِنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرْسَلَكُمْ مِمَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَيْتُمْ عَمَّا بَعِمَ لِكَيْلًا تَحْزِنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصْبَحَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

العتاب هنا يبرز في تذكيرهم بنعمة الله عليهم بالنصر والظفر، حتى إذا فشلوا وتنازعوا وعصوا هزموا وفروا، وبالتأمل في هذه الآيات نجد صيغتي الفعل الماضي والمضارع هما محور التعبير للتذكير بتلك المواقف واستحضارها، ففي الآية الأولى سبعة أفعال ماضية هي: (صدقكم. فشلتم. تنازعتم. عصيتم. أراكم. صرفكم. عفا) ودلالة الماضي تلقي بظلالها على تأكيد هذه المعاني، فصدق الله لهم بالنصر حتم مؤكد، وما جرى من فشلهم وتنازعهم

وعصيانهم حدث ومضى ولا يراد تكراره، وصرف الله لهم ووقوع الهزيمة بهم كان عقوبة على ما اقترفوه، ثم جاء عفوه عنهم مؤكداً بصيغة الماضي، ليفتح لهم باب الأمل في الإنابة إلى جنبه، وهذه الأفعال الماضية تشكل صورة واضحة لما حدث، وفي تذكيرهم به عتاب شديد.

كما تكررت صيغة المضارع في الآية الأولى خمس مرات هي: (تحسونهم. تحبون. يريد. يريد. يبتليكم) وصيغة المضارع "تحسونهم" أي: تقتلونهم قتلاً ذريعاً" (الزحشري، ١٩٩٧). تستحضر الحدث وتكشف الستار عن الفصل الأول من المعركة، فيظهر المؤمنون وهم يكرزون على عدوهم ويحصدون رقابهم حصداً، وهذه الأفعال المضارعة ترسم لوحة مرئية للأحداث وتستحضرها أمام أعينهم، مما يعطي العتاب بعداً آخر من التنديم والتأنيب. ومن بديع النظم في الآية دخول "إذ" على المضارع "تحسونهم" ودخول "إذا" على الماضي "فشلتهم" قال الشيخ ابن عاشور: "إذ" للمضي، وأتى بعدها المضارع لإفادة التجدد، أي: لحكاية تجدد الحس في الماضي، فالمعنى إذ تقتلونهم بتيسير الله، واستمر قتلهم إياهم إلى حصول الفشل لكم والتنازع بينكم، "وإذا" اسم زمان، وهو - في الغالب - للزمان المستقبل، وقد يخرج عنه إلى الزمان مطلقاً كما هنا، ولعل نكتة ذلك أنه أريد استحضار الحالة العجيبة تبعاً لقوله: "تحسونهم" (ابن عاشور، ١٩٨٤).

فـ "إذ" الظرفية تدل بداهة على أن ما بعدها أمر قد انقضي زمنه، ودخولها على المضارع الدال على الاستقبال يكشف عن سر بديع، فكأنها إشارة تلفت المخاطب إلى الماضي وتذكره به، ثم تأتي صيغة المضارع لتحضر هذا الماضي من غيب الذاكرة إلى أفق الناضرة، فـ "إذ" تقوم في السياق بدور الراوي الذي يجمع الأحداث، والرباط الذي يسلك التشبيت من الوقائع في سلك واحد؛ ليعود إلى مصدره المراد والذي لا يتكرر لأنه استقر في أعماق المتلقى (بيومي عجلان، ١٩٩٦).

وقد تكرر التأليف بين "إذ" وصيغة المضارع في مواضع كثيرة من آيات العتاب، وكأنهما يمثلان ثنائية بديعة مهمتها في السياق لفت المخاطب إلى الماضي بـ "إذ" ثم استحضاره وتصويره بالمضارع من ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (آل عمران: ١٢٤)، وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٥٣).

ثم يأخذ السياق في عرض صورة دقيقة لما حدث في المعركة كأنها المرآة يرون أنفسهم فيها، أو كأنها شريط للأحداث يعرض عليهم؛ ليروا أنفسهم (قطب، محمد، ١٩٩٣). يقول تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ فَأَتْبِكُمْ غَمًّا بَعِيًّا لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَبَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٣) الآية تصور مشهد فرار المؤمنين وتوليهم بعد ما حالت الريح دبوراً وكانت صبا.

وجاء التعبير بصيغة المضارع في خمسة مواضع: (تُصْعِدُونَ. تَلْوَنَ. يَدْعُوكُمْ. تَحْزَنُوا. تَعْمَلُونَ) فالفعل "تصعدون" أي: أبعد في الذهاب وأمعن فيه (القرطبي، ١٩٨٧) يستحضر مشهد الفرار والجد في الهروب، والفعل "لا تلوون" يعكس عدم اهتمامهم بأي شيء وعدم التفاهم إلى أحد، وجدهم في النجاة بأنفسهم، والفعل

"يدعوكم" يصور مشهد ثبات النبصلى الله عليه وسلم وكأنه واقف الآن في أخراهم يناديهم إلى عباد الله من يكر فله الجنة" (الزمخشري، ١٩٩٧).

ويكمن العتاب في تذكيرهم بفرارهم من المعركة بهذا التعبير المصور لمشهد الفرار "تَصْعِدُونَ وَلَا تَلْوَنَ" وزادت حدة العتاب بأنهم فروا والنبى صلى الله عليه وسلم ثابت يدعوهم ويناديهم، وهم يصعدون لا يلوون عليه ولا يستمعون لندائه، هكذا تصور الآية حركتهم الحسية والنفسية في دقة معجزة، حين فوجئوا بهجوم العدو المباغت، فانفرط عقد وحدتهم، ففروا منفلتين في اضطراب ودهش لا يلتفتون لأحد، والرسول صلى الله عليه يدعوهم ليطمئنهم على حياته، حتى يثبتوا ويرجعوا لكنهم جدوا في الهرب" (قطب، ١٩٩٢). ولا يخفى أن أداة التصوير الأولى في الآية هي صيغة المضارع، فقد استحضرت مشهد المعركة، كأنهم اللحظة فيها.

وبتذكيرهم بفرارهم على هذا النحو يبلغ السياق مداه في تغليظ العتاب، وتشديده، حتى بلغت الروح الحلقوم من شدة الندم، ثم يأخذ السياق في التلطف والتسلي؛ لتنساب تلك الروح، وتحلق في أفاق الأمل، فيصف ما أعقب هول الهزيمة من سكون عجيب في نفوس المؤمنين الذين تابوا إلى ربهم، وثابوا إلى نبيهم صلى الله عليه وسلم، فقد شملهم نعاس لطيف يستسلمون إليه مطمئنين. (قطب، ١٩٩٢).

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هُنَا قُل لَّو كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران، ١٥٤).

ويكمن العتاب هنا في تذكيرهم بفضل الله عليهم رغم عصيانهم وفرارهم، وجاء التعبير بالفعل المضارع "يغشى" ليستحضر تلك الحالة العجيبة التي أعقبت هرج المعركة، ويخيل للسامع أنها تقع الآن، فيصور طائفة المؤمنين الموقنين وقد غشيهم نعاس رقيق، فأمنوا من شدة الفزع واطمأنوا من هول الكرب، أما طائفة المنافقين الذين لم يهتمهم أمر الدين، ولا أمر النبي صلى الله عليه وسلم ولا أمر إخوانهم، وإنما أهمهم أمر أنفسهم فقد حرموا هذا الأمن، وجاء التعبير في وصف حالهم بصيغة المضارع "يظنون. يقولون. يخفون. يقولون" ليستحضر حالتهم النفسية العجيبة، فقد أضمرنا ظنهم وأخفوا أقوالهم، ولكن الله فضحهم وكشف ما يضمرون، كأنهم الآن يقفون في قلق وحيره، تنقطعهم ظنون الجاهلية وتتنازعهم الشكوك في قدر الله تعالى وحكمته.

هكذا يصور التعبير القرآني مشهد المعركة كاملاً بكل جوانبه، وأبعاده، ويحفظ هذه الصورة واضحة ناصعة يراها كل من يطالعها على تتابع الزمن، وكأنها تقع الآن أمام عينه، بل كأنه يعيش فيها، ولا شك أن صياغة هذه الأحداث في ثوب الفعل المضارع كانت العامل الأساسي في استحضار المشاهد وتصويرها.

ومن دقة التعبير بصيغة المضارع ما نراه في عتاب الله تعالى للمتخلفين عن غزوة تبوك، وتذكيرهم بنصره سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم حين لم يكن معه منهم أحد، يقول تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ

أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٤٠). قال القرطبي: "عاتبهم الله بعد انصراف نبيه صلى الله عليه وسلم من تبوك، والمعنى: إن تركتم نصره فالله يتكفل به؛ إذ قد نصره في مواطن القلة، وأظهره على عدوه بالغلبة والعزة" (القرطبي، ١٩٨٧).

ويتجلى العتاب هنا في قوله تعالى: "إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ" كأنه يقول لهم: إن لم تنصروه فلا حاجة له في نصركم؛ لأن الله نصره حين لم يكن معه أحد منكم، فالآية تصور مشهد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إذ هما في الغار، وعبر عن الحدث الماضي بصيغة الاستقبال "يقول" للدلالة على التكرار المستفاد من بعض الروايات، ولاستحضار صورة ما كان في ذلك الزمان والمكان؛ ليمثل المخاطب ما كان لها من عظمة الشأن (رضا، وعبد، ١٩٩٠).

فصيغة المضارع "يقول" تستحضر الحدث وتصوره، كما توحى بأهميته والاعتناء به، وتنبيه المخاطب إليه، "وكذا يُفعل بكل فعل فيه نوع تميز وخصوصية، كحال تستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك" (ابن الأثير، ١٩٩٢)، كأن الأحداث كلها من إخراجهم ومعاناته تمضي سريعة وتمر على ذاكرة السامع، ويبقى هذا القول متركزاً في الذاكرة، شاهداً بثبات النبصلى الله عليه وسلم وبقينه في نصر ربه جل وعلا، ولو عبر بصيغة الماضي، "إذ قال" لصاحبه، لفات كثير من هذا التخيل والإيحاء، "وهكذا يتحول الأسلوب عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع عند التعبير عن الأحداث التي هي في ذاتها موطن العبرة، ومناطق التأمل" (طبل، ١٩٩٨).

ومن روائع التعبير بصيغة المضارع، ما جاء في عتاب الله تعالى للمؤمنين؛ إذ خاضوا في حديث الإفك، الذي أشاعه المنافقون افتراء على أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها، فنزل القرآن ببراءتها ونقاء صفحتها، وبفضيحة الذين أشاعوا قالة السوء، وكشف مكرهم (النيسابوري، ١٩٦٨) يقول تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥). الآية ترسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام، واختلت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، فانطلقت الألسنة تلوك هذا الحديث، وامتلات به الأفواه والمجالس (قطب، ١٩٩٢).

ويكمن العتاب في وصف تناقلهم لتلك الفرية واستخفافهم بها بهذه الجمل الثلاث المصورة: "تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ" "تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ" "تَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا" ففي تذكيرهم بهذه الحالة عتاب شديد، كأنه يقول: كيف تجرأتم على تناقل هذا الإفك دون علم يقيني، واستحفظتم بإشاعته وهو عند الله عظيم.

ويتجلى إعجاز القرآن في التعبير بصيغة المضارع في هذه الآية دون غيرها من الآيات التي نزلت في الحادثة، فلو أنعمنا النظر في السياق -سابقاً ولاحقاً- لتبين أن الأفعال الواردة فيه جاءت كلها بصيغة الماضي إلا هذه الآية يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَلَوْلِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ

الْكُذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَلًى عَظِيمٌ ﴿النور: ١١-١٦﴾.

فقد جاء التعبير بصيغة الماضي في تسعة مواضع هي على الترتيب: "جاءوا، اكتسب، تولى" (الآية ١١) "سمعتموه، ظن، قالوا" (الآية ١٢) "جاءوا" (الآية ١٣) "سمعتموه، قلت" (الآية ١٦). أما التعبير بصيغة المضارع فجاء في ثلاثة مواضع هي: "تلقونه. تقولون. تحسبونه" (الآية ١٥) والسر في ذلك أن هذه الآية دون غيرها هي التي تعبر عن الحدث، وتصور مشهد تناقله بين المجالس، وتلقفه بالألسن، ومن ثم كان التعبير بصيغة المضارع هنا أدق وأنسب؛ للاهتمام بالخبر وتنبيه المخاطب عليه، إذ هو موطن العتاب، ومناطق التوبيخ، فالآية تصور حركتهم الظاهرة ممثلة في قوله: "إذ تلقونه بألسنتكم"، كما تصور حركتهم النفسية الباطنة بقوله: "وتحسبونه هيناً"، والأولى مسببة عن الثانية، فما لاكت الألسن هذا الحديث الأسن، ولا قذفت به الأفواه إلا لهوانه، وقلة أمره في القلوب، ولو عظم في القلوب أمره، وعرفت النفوس قدره لما تحرك به لسان، هكذا تستحضر صيغة المضارع الحدث، وتضع المخاطبين أمام صورة حقيقية لفعلتهم؛ ليعتبروا ويزدجروا، وبذلك يؤتى العتاب ثمرته من التربية والتهذيب. مما سبق يتبين أن صيغة المضارع صيغة فاعلة، ولها دور وظيفي بارز في مقام العتاب؛ إذ تفيد استحضار الموقف المقتضي للعتاب وتنبه المخاطب إليه؛ لأنه موطن الخطأ، وموضع الاعتبار، كما تفيد في الدلالة على تجدد الحدث واستمراره، والقرآن يوظف هذه الصيغة في سياق العتاب بدقة معجزة، ويستفيد من طاقتها الدلالية أقصى ما تعطيه لإظهار المعنى، والوفاء بحق الغرض.

المطلب الثالث: التعبير بالفعل الماضي

الفعل الماضي يدل بوضعه على حدوث الفعل في الزمن الماضي وكونه مقطوعاً به (الزمخشري، ١٩٩٧). ومن ثم يفاد منه أمران: أولهما: التوكيد والتحقيق في التعبير عن المستقبل، قال ابن الأثير: "الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد" (ابن الأثير، ١٩٩٢). والثاني: سرد الأحداث الماضية، وحكايتها، والتذكير بها، فدلالته في السياق دلالة رواية وقص. (عجلان، ١٩٩٦).

والعتاب بطبيعته يأتي عقب موقف يستوجب؛ لذا فإن صيغة الماضي هي الأداة الطيبة في قص الحدث ورواية الموقف المستوجب للعتاب والتذكير به، ومن ثم نجد أن التعبير بالماضي ظاهرة جليلة في آيات العتاب. من ذلك ما جاء في عتاب أبينا آدم عليه السلام لأكله من الشجرة، قال تعالى: ﴿فَدَلَلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفَفَا خِصْفًا عَلَيْهِمَا مِنْ رَزَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَهْكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (الأعراف، ٢٢، ٢٣).

هذا أول عتاب للبشرية في شخص آدَم عليه السلام، على نسيان العهد، ومخالفة الأمر، قال الزمخشري: "هذا عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبية على الخطأ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس" (الزمخشري، ١٩٩٧). ويكمن العتاب هنا في الاستفهام التقريري في قوله تعالى: "أَلَمْ أَهْكُمَا عَنْ تَلْكُمَا الشَّجَرَةَ" فالآية تصور مشهد انخداع آدَم عليه السلام في وسوسة إبليس وتزيينه الأكل من الشجرة، وما أعقب ذلك من انكشاف سوءاتهما، وعتاب الله لهما على نسيان عهده وعصيان أمره.

ويبرز في الآية التعبير بصيغتي الماضي والمضارع، حيث وردت خمسة أفعال ماضية هي: "فَدَلَّلَهُمَا، ذَاقَا، بَدَتْ، طَفِقَا، نَادَلَهُمَا"، ودلالاتها هنا دلالة قص وحكاية للأحداث وسرد للمشاهد، ويبدأ تصوير هذا المشهد بالفاء التي عطفت قوله: "فدلاهما" على قوله سابقا: "وقاسماهما"، ومعناها التعقيب والسببية؛ لأن التدلية كانت بسبب الانخداع بالقسم، قال الزمخشري: "فَدَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ" فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، بما غرهما به من القسم بالله" (الزمخشري، ١٩٩٧).

والتعبير بالفعل "دلاهما" فيه إحياء بسقوط المنزلة بعد المعصية، وقوله: "فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ" مرتب على دلاهما بغرور والفاء فصيحة دلت على جملة محذوفة والتقدير فأكلا منها، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما، ونلاحظ هنا التناسب المعجز بين دلالة "الفاء ولما والفعل ذاق" فالفاء تدل على التعقيب والسرعة و"لما" التعليقية تدل على تعليق حصول جوابها بأول حصول شرطها" (الزمخشري، ١٩٩٧). والذوق هو إدراك الطعم ويحصل عند ابتداء الأكل أو الشرب" (ابن عاشور، ١٩٨٤). فدللت هذه المعاني على سرعة ترتب عاقبة الذنب على أول وقوع المخالفة، فبمجرد أن ذاقا من الشجرة بدت سوءاتهما، وشعرا بالندم، فلم يهنأ بما ذاقا منها، وهذا من دقة النظم القرآني وإعجازه.

والتعبير بالفعل "نادى" بدلاً من قال لهما، أو كلمهما، لما في معنى النداء من طلب الحضور والإقبال الذي يتفرع عنه حسن الإصغاء، كما أن فيه إشارة لطيفة إلى بعدهما، بسبب وقوعهما في المعصية، وتأخير النداء إلى أن بدت سوءاتهما، وتحيلنا لستر عوراتهما، ليكون العتاب والتوبيخ أوقع وأمكن في نفوسهما، حتى يقع بعد أن تظهر لهما مفاسد عصيانهما، فيعلما أن الخير في طاعة الله وأن في عصيانه ضرراً" (ابن عاشور، ١٩٨٤). ثم جاء التعبير بالفعل المضارع مرتين "أَهْكُمَا، وَأَقْل" وإسناد الفعلين إلى ضمير التكلم العائد على الله سبحانه يشعر بتشديد العتاب لأنه باشر العتاب بذاته جل وعلا، والتوبيخ على الفعل إذا كان ممن نهي عنه كان أشد تأثيراً" (أبوالسعود، ١٩٩٩).

ومن التعبير بالماضي ما جاء في عتاب المؤمنين في غزوة أحد يقول تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران، ١٤٦). الآية تعاتب المؤمنين الذين انهزموا عندما أشيع خبر قتل النبي صلى الله عليه وسلم وتذكروهم بثبات المجاهدين مع الأنبياء السابقين، قال الزمخشري: "في هذا تعريض بمن أصابهم الوهن، والانكسار من الصحابة، وضعفوا عن مجاهدة

المشركين، واستكانوا لهم" (الزمخشري، ١٩٨٧). فالعتاب يكمن في تذكيرهم بثبات المجاهدين الصادقين مع الأنبياء السابقين، كأنه قال: ما لكم لم تقتدوا بهؤلاء وأنتم أصحاب أفضل الأنبياء؟

والتعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: "قُتِلَ، وَهُنُوا، أَصَابَهُمْ، ضَعُفُوا، اسْتَكَاثُوا" يفيد رواية الحدث، وحكايته، والتذكير به، كما يفيد تأكيد نفي الوهن والضعف والاستكانة عن هؤلاء الربين. ومن التعبير بالماضي ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

تبرز في هذه الآية صيغة الماضي حيث تكررت سبع مرات، أربعة منها مسندة إلى الله تعالى، وهي: (صَدَقَكُمُ، أَرْكُمُ، صَرَفَكُمْ، عَفَا) وثلاثة مسندة إلى من تسببوا في الهزيمة، وهي: (فَشِلْتُمْ، تَنَزَّعْتُمْ، عَصَيْتُمْ) فالفعل "صدقكم" يؤكد صدق وعد الله لهم بالنصر، وينفي ما دب في نفوسهم من شك، وقد زاد هذا التوكيد بالقسم وقد التحققية، ثم تأتي الأفعال الثلاثة المسندة إلى المؤمنين في قوله تعالى: "حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ"؛ لتروي سبب الهزيمة، فقد ضعف فريق منهم أمام إغراء الغنيمة، ووقع النزاع بينهم وانتهى الأمر إلى العصيان، فتوزعت القلوب، وتفرق الصف. (قطب، ١٩٩٢).

ويستند العتاب والتوبيخ لهم في قوله تعالى: "مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ"، قال القرطبي: "ووجه التوبيخ أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام" (القرطبي، ١٩٨٧). والالتفات بإسناد الفعل "أراكم" إلى الله تعالى بعد قوله: "فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ"، فلم يقل: من بعد ما رأيتم ما تحبون؛ فيه تشديد في الملام والعتاب، حيث أسند إليهم المكروه وهو الهزيمة، وأسند إلى ذاته المحبوب وهو الغنيمة، وليس بعد هذا النزاع والعصيان إلا الهزيمة والفرار، فجاء قوله "ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ" أي: رد وجوهكم عنهم؛ لمعصيتكم أمر رسوله، وإيثاركهم الدنيا على الآخرة؛ عقوبة لكم على ما فعلتم؛ ليختبركم فيتميز المنافق منكم من المخلص الصادق في إيمانه. (الطبري، ١٩٩٧).

وهنا يبلغ السياق مداه في تشديد العتاب والتقريع حتى تكاد النفوس تطير خوفاً ورهبة، ثم يعقب ذلك بما يطمئن القلوب، ويُلْقِي بها في آفاق الأمل، بقوله: "وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"؛ تسكيناً لخواطرهم، وتلطفاً بهم على عادة القرآن في عتاب المؤمنين، "وهذه سمة العتاب الناجع، فهو يذكر تذكيراً قاسياً بما كان مما استوجب العتاب، ثم يتلطف ويغري بالرجوع إلى الحق، ويحث عليه بما يثيره النص من بوارق الأمل، وأسباب العفو" (المطعني، ١٩٩٢). ومن لطائف التعبير في هذه الآية أنها بدأت بصدق الله وعده لهم، وختمت بعفوه عنهم، وما بين صدق والوعد والعفو جرت أمور كانت سبباً في الهزيمة، وموجباً للعتاب.

وهكذا نجد لصيغة الماضي -بما تحمل من دلالة الحكاية- دورها في التذكير بالحدث المعاتب عليه، والعودة إليه، وهذا التذكير أحد ركني العتاب الناجح، فالعتاب يقوم على ركنين هما: التذكير بالحدث تذكيراً شديداً، والتلطف في الإرشاد للرجوع إلى جادة الصواب.

ومن التعبير بالماضي ما جاء في عتاب المؤمنين على تناقلهم شائعة الإفك، في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ وقوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَلًى عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٢، ١٦). قال القرطبي: "هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا" (القرطبي، ١٩٨٧). فالواجب على المؤمن إذا سمع مقالة في أخيه أن يبيّن الأمر فيها على حسن الظن، لا على الشك، وأن يقول بملء فيه: هذا إفك مبين، وهذا بهتان عظيم، هكذا بلفظ المصحح الموقن ببراءة ساحة أخيه" (الزمخشري، ٢٢٢/٣).

والتعبير بالماضي بعد "لولا" في الآيتين "لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ" و"لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ" لإفادة التوبيخ والتقريع (ابن هشام، ٢٠١٩). وفي هذا الأسلوب تشديد في العتاب، كأنه يقول: كان عليكم أن تحسنوا الظن بإخوانكم المؤمنين، وتمسكوا ألسنتكم عن الخوض في هذا الإفك. فكيف تجرأتم والمتهم في هذا الإفك أظهر عفيفة، وزوج أظهر الخلق أجمعين؟ ومن لطائف ترتيب النظم أن الآية الأولى عبرت عن حسن الظن، وهو أمر قلبي باطن، والآية الثانية عبرت عن حسن القول، وهو أمر جسي ظاهري، مراعاةً لترتيبهما في الوجود؛ فإنه متى انعقد القلب على ظن ما انطلق به اللسان، ولاكتته الأفواه.

ومن بلاغة التعبير بالماضي في مقام العتاب، مجيئه معطوفاً على المضارع لتأكيد المعنى، وبيان أهميته، في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوعُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالْسُوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ (المتحنة: ٢). "هذه الآية معاتبة لحاطب أبي بلتعة حين أرسل لإبلاغ أهل مكة بخروج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لفتح مكة، وهى تدل على فضله وكرمه، ونصيحته، وصدق إيمانه؛ فإن المعاتبة لا تكون إلا من محب لحبيبه" (القرطبي، ١٩٨٧). ويكمن العتاب في تذكيره بأن هؤلاء الكفار الذين حاولت إبلاغهم بأسرار الحرب موالاة لهم، لن يوالوكم وإن ظفروا بكم أظهروا لكم أشد العداوة، فكيف توالوهم؟

"والمعنى: لا توالوهم؛ فإنهم إن ظهروا عليكم، وظفروا بكم أظهروا لكم عداوتهم الدفينة، وبسطوا إليكم أيديهم بالقتل والأسر والتعذيب، وألسنتهم بالفحش والسب، وقبل كل ذلك يريدون أن تكفروا بما أنتم عليه من الهدى، فإذا مودة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم" (الزمخشري، ٥١٢/٤).

وعطف الفعل الماضي "وَدُّوا" على المضارع "يَكُونُوا، وَيَسْطُوعُوا" يفيد تأكيد المعنى، قال الزمخشري: "إن الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه نكتة عظيمة، كأنه قيل: وودوا قبل كل شيء كفركم، يعنى أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً، وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم، وأولها؛ لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم؛ لأنكم بذالون لها دونه، والعدو أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه" (الزمخشري، ١٩٩٧). ففي التحول إلى صيغة الماضي تنبيه على أن هذه الأمانة أعظم الأمانى عندهم وأكدها، وأشدّها رسوخاً في نفوسهم الحاقدة.

وهكذا يتجلى توظيف السياق القرآني لصيغة الماضي في قص الأحداث المعاتب عليها، وتوكيد المعاني الإيمانية والتربوية المبثوثة في الآيات، والمغايرة بين صيغتي الماضي والمضارع تعد ظاهرة أسلوبية في مقام العتاب يوظفها النظم القرآني بدقة معجزة، لبيان المقاصد والأغراض.

المطلب الرابع: التعبير بصيغة اسم الفاعل

اسم الفاعل هو وصف مشتق، يدل على معنى مجرد حادث، وعلى فاعله. أي إنه يدل على معنى عارض، يطرأ ويزول، فليس له صفة الثبوت والدوام (حسن، ١٩٧٤). وعلى أساس هذه الدلالة، توظف صيغة اسم الفاعل في سياق العتاب لإفادة معانٍ بلاغية دقيقة. من ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (هود: ١٢).

في هذه الآية عتاب رقيق للحبيب صلى الله عليه وسلم لضيق صدره من إعراض المشركين عنه واستهزائهم بما جاء به، وليس المعنى أنه ترك شيئاً من تبليغ الرسالة، كلا ولكن المراد بهذا العتاب تهييجه على أداء الرسالة، وطرح المبالاة بما يقولون، وترك الالتفات إلى استهزائهم" (الزمخشري، ١٩٩٧). والتعبير بصيغة اسم الفاعل "ضائق"، بدلاً من الصفة المشبهة "ضيق" مع أن الثانية أكثر استعمالاً يكشف عن سر بديع، يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم عدل عن ضيق إلى ضائق؟ قلت: ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفسح الناس صدرًا، ومثله قولك: زيد سيد وجواد تريد السيادة والجلود الثابتين المستقرين، فإذا أردت الحدوث قلت: سائد وجائد (الزمخشري، ١٩٩٧).

ثم فرق بين صيغة اسم الفاعل، والصفة المشبهة، وهو أن اسم الفاعل يدل على مطلق الثبوت بأصل وضعه، وقد يدل على الحدوث بعروض الاستعمال ولا يدل على الدوام إلا بالقرينة والسياق، أما الصفة المشبهة فإنها تدل على الثبوت والدوام جزماً بأصل وضعها" (ابن يعقوب المغربي، د.ت). فالصفة المشبهة لا تصلح في هذا المقام، لأنها تفيد لزوم الضيق ودوامه، وهذا لا يليق بمقام من قال الله له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (الشرح: ١).

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب: ٣).

هذه الآية في عتاب للنبي صلى الله عليه وسلم في قصة زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، ويبرز في أسلوب الآية الطباق المعنوي البديع بين صيغة المضارع "تخفي" وصيغة اسم الفاعل "مبديه"، فالتعبير عن إخفاء النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر بصيغة الفعل المضارع "تخفي" للدلالة على تكرار إخفاء ذلك وعدم ذكره، والمقصود إخفاء علمه بأنه سيتزوج زينب وأن زيدا سيطلقها وذلك سر بينه وبين ربه ليس مما يجب عليه تبليغه ولا مما للناس فائدة في علمه حتى يُبلَّغوه" (التحرير والتنوير ٣٠/٢٢).

فصيغة المضارع هنا توحى بمدى حرصه صلى الله عليه وسلم على كتمان هذا الأمر حتى يقضيه الله تعالى. أما التعبير عن إظهار الله تعالى له بصيغة الاسم "مبديه" للدلالة على ثبوت هذا الأمر عند الله تعالى وأنه أمر محقق لا محالة؛ لما فيه من التشريع للأمة، والتخفيف عنها بإبطال التبنّي، ورفع الحرج في نكاح زوجة المتبنّي.

الخاتمة

فقد تناول البحث أسلوب العتاب في القرآن الكريم، فبين مفهومه ومقاماته، ثم سلط الضوء على توظيف الصيغ الصرفية في بيان المعاني وتحقيق المقاصد من العتاب، وقد توصل البحث إلى عدة نتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

١. أن مقامات العتاب في القرآن الكريم أربعة مقامات، هي: عتاب الله تعالى للأنبياء السابقين، وعتاب الله للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وعتاب الله تعالى لأمهات المؤمنين، وعتاب الله تعالى للمؤمنين، وقد بلغت آيات العتاب إجمالاً ١٣٨ آية.
٢. أن العتاب القرآني مظهر من مظاهر لطف الله بعباده المؤمنين، وإحسانه إليهم، فهو - سبحانه - يعاتبهم على ما بدر منهم، ليقيل عثرتهم ويرفع درجاتهم.
٣. أثبتت الدراسة أن اختيار صيغ الماضي والمضارع واسم الفاعل في أسلوب العتاب، يرتبط بمناسبة الصيغة للسياق.
٤. أن البيان القرآني يوظف صيغة الفعل الماضي في قص الحدث المقتضي العتاب وتذكير المعاتب به، كما يأتي في بعض السياقات لتأكيد المعاني والتوجيهات الإلهية المبثوثة في ثنايا العتاب.
٥. كما يوظف صيغة المضارع في استحضار الحدث المعاتب عليه، وعرضه كأنه يحدث الآن، وقد يأتي للتعبير عن معنى الاستمرارية في المعاني التوجيهية والإيمانية التي يقتضيها موقف العتاب.
٦. كما يوظف صيغة اسم الفاعل في الدلالة على المعاني الثابتة، والصفات الراسخة مما يفيد توكيد المعاني وتقديرها.
٧. أن القرآن الكريم يسلك في العتاب مسلكاً لطيفاً ينفذ به إلى أعماق النفوس، يجمع بين الإنكار والتعنيف، والتسلية والتلطيف، ويوظف في ذلك الصيغ المتنوعة بما يلائم السياق، وفي الغرض.

References

- Abu al-Sa'ud al-Imadi. (1999). Irshad al-aql al-salim ila mazaya al-kitab al-karim. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Abu Hayyan al-Andalusi. (1993). Al-Bahr al-muhit fi al-tafsir. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Ajlan, Bayumi. (1996). Fi al-balaghah wa-al-ada' al-fanni. Dar al-Ma'rifah al-Jam'iyyah.
- Al-Alusi, Shihab al-Din. (1994). Ruh al-ma'ani fi tafsir al-Qur'an al-azim wa-al-sab' al-mathani. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Al-Asfahani, al-Raghib. (2004). Mufradat alfaz al-Qur'an. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Badawi, Ahmad. (2005). Min balaghat al-Qur'an. Dar Nahdat Misr.
- Daraz, Muhammad Abdullah. (2005). Al-Naba' al-azim: Nazarat jadidah fi al-Qur'an. Dar al-Qalam.
- hayat al-lughawiyah al-mutajaddidah (3rd ed., Vols. 1-4). Dar al-Ma'arif.

- Ibn al-Atheer, Diya' al-Din. (1992). *Al-Mathal al-sa'ir fi adab al-katib wa-al-sha'ir*. Dar Nahdat Misr.
- Ibn Ashur, Muhammad al-Tahir. (1984). *Al-Tahrir wa-al-tanwir*. Al-Dar al-Tunisiyyah li-l-Nashr.
- Ibn Atiyyah, Abd al-Haq bin Ghalib. (1975). *Al-Muharrar al-wajiz fi tafsir al-kitab al-aziz*. Al-Majlis al-Ilmi bi-Fas.
- Ibn Hisham, Abdullah bin Yusuf. (2019). *Mughni al-labib 'an kutub al-a'arib* (F. Qabawah, Ed.; 3rd ed.). Dar al-Lubab.
- Ibn Ya'qub al-Maghribi. (n.d.). *Mawahib al-fattah fi sharh talkhis al-miftah* (Dalam Shuruh al-Talkhis). Dar al-Surur.
- Jurjani, Abd al-Qahir. (1992). *Dala'il al-i'jaz* (M. Shakir, Ed.). Matba'at al-Madani.
- Al-Khafaji, A. M. A. (2025). *Inayat al-qadi wa-kifayat al-radi* (Hashiyat al-Shihab al-Khafaji 'ala Tafsir al-Baydawi) (M. K. Al-Abdullah & M. A. Ba'aj, Eds.; 1st ed.). Dar al-Lubab.
- Al-Khatib al-Qazwini. (1993). *Al-Idah fi ulum al-balaghah*. Dar al-Jil.
- Al-Khattabi, Abu Sulayman. (1976). *Bayan i'jaz al-Qur'an* (Dalam Thalaath Rasa'il fi I'jaz al-Qur'an) (M. Khalafallah & Z. Salam, Eds.). Dar al-Ma'arif.
- Al-Mut'ani, Abd al-Azim. (1992). *Khasa'is al-ta'bir al-Qur'ani wa-simatuhu al-balaghiyyah*. Maktabat Wahbah.
- Al-Naysaburi, al-Wahidi. (1968). *Asbab al-nuzul*. Matba'at Mustafa al-Babi al-Halabi.
- Odaymah, Muhammad Abd al-Khaliq. (1999). *Al-Mughni fi tasrif al-af'al*. Dar al-Hadith.
- Al-Qartajanni, Hazim. (1996). *Minhaj al-bulagha' wa-siraj al-udaba'*. Dar al-Kutub al-Sharqiyyah.
- Qutb, Muhammad. (1993). *Dirasat Qur'aniyyah*. Dar al-Shorouk.
- Al-Razi, Fakhr al-Din. (2004). *Nihayat al-ijaz fi dirayat al-i'jaz*. Dar Sadir.
- Rida, Muhammad Rashid. (1990). *Tafsir al-Manar*. Al-Hay'ah al-Misriyyah al-Ammah li-l-Kitab.
- Sakkaki, Yusuf bin Muhammad. (1987). *Miftah al-ulum*. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Sayyid Qutb. (1992). *Fi zilal al-Qur'an*. Dar al-Shorouk.
- Suyuti, Jalal al-Din. (n.d.). *Lubab al-nuqul fi asbab al-nuzul*. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Tabari, Muhammad bin Jarir. (1997). *Jami' al-bayan 'an ta'wil ay al-Qur'an*. Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Tabl, Hassan. (1998). *Aslub al-iltifat fi al-balaghah al-Qur'aniyyah*. Dar al-Fikr al-Arabi.
- Al-Zamakhshari, Jar Allah. (1997). *Al-Kashshaf 'an haqa'iq ghawamid al-tanzil*. Dar Ihya' al-Turath al-Arabi.
- Al-Zarkashi, Badr al-Din. (1975). *Al-Burhan fi ulum al-Qur'an*. Dar Ihya' al-Kutub al-Arabiyyah Isa al-Babi al-Halabi.

نفي

الآراء الواردة في هذه المقالة هي آراء المؤلف. القناطر: مجلة الدراسات الإسلامية العالمية لن تكون مسؤولة عن أي خسارة أو ضرر أو مسؤولية أخرى بسبب استخدام مضمون هذه المقالة.